7 ـ كتاب درر السمط فى اخبار السبط

هذا هو الكتاب الذى اشار اليه المقرى ، واقتبس منه فصولا ، ولم نعثر عليه ، ولم يشر اليه احد ممن ترجموا ابن الابار ، وها نحن اولاء نأتى بهذه الفصول فى مؤلفنا هذا استكمالا للبحث ، نقلا عن [1] نفح الطيب :

قال رحمه الله تعالى :

« رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، فروع النبوة والرسالة ، وينابيع السماحة والبسالة ، صفوة ال ابى طالب ، وسراة بنى لؤى بن غالب ، الذين جاءهم الروح الامين ، وحلاهم الكتاب المبين ، فقل فى قوم شرعوا الدين القيم ، ومنعوا اليتيم ان يقهر والايم : ما قد من أديم آدم أطيب من ابيهم طينة ، ولا أخذت الارض اجمل من مساعيهم زينة ، اولا هم

(1) صفحة 601 ـ 604 من الجزء الثانى .

ما عبد الرحمن ، ولا عهد الايمان وعقد الامان ، ذؤابة غير اشابة ، فضلهم ما شانه نقص ولا شابه ، سراة محلتهم سر المطلوب ، وقرارة محبتهم حبات القلوت ، أذهب الله عنهم الرجس ، وشرف بخلقهم الجنس ، فان تميزوا فبشريتهم البيضاء ، او تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء ، من كل يعسوب الكتيبة ، منسوب لنجيب ونجيبة ، نجاره الكرم وداره الحرم ، نمته العرانين من هاشم ابى النسب الاصرح الواضح ، الى نبعة فرعها فى السماء ، ومغرسها سرة الاباطح ، اولئك السادة أحيى وأفدى ، والشهادة بحبهم أوفى وأؤدى ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه .

فصل

ما كانت خديجة لتأتى بخداج ، ولا الزهراء لتلد الا أزاهر كالسراج ، مثل النحلة لاتأكل الا طيبا ، ولا تضع الا طيبا ، خلدت بنت خويلد ، ليزكو عقبها من الحاشر العاقب ، ويسمو مرقبها على النجم الثاقب ، لم تجد بمثلها المهارى ، ولم يلد له غيرها من المهارى ، آمت من بعولتها قبله ، لتصل السعادة

فحبلها حبله ، ملاك العمل خواتمه، رب ربات جمال انقذ من بحول رجال ،

ما والتانيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

هذه خديجة من اخيها حزام احزم ، واشعار الصدق من شعارات القص ألزم ، وكنت إلى الركن الشديد ، وسددت للهدى كما هديت للتسديد ، يوم نبىء خاتم الانبياء ، وانبىء بالنور المنزل عليه والضياء .

فصل

وكان قبيل المبعث بين يدى لم الشعث ، يثابر على كل حسنى وحسنة ، ويجاور شهرا من كل سنة ، يتحرى حراء بالتعهد ، ويزجى تلك المدة فى التعبد ، وذلك الشهر المقصور على التبرر المقدور فيه رفع التضرر شهر رمضان المنزل فيه القرآن ، فبيناه لاينام قلبه وان نامت عيناه ، جاءه الملك مبشراً بالنجح ، وقد كان لايرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح ، فغمره بالكلاءة ، وأمره بالقراءة . وكلما تحبس له غطه ثم أرسله

واذا أراد الله بعبد [1] خيراً عسله .

تريدين ادراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل

كذلك حتى عاذ بالارق من الفرق . وقد علق فاتحة العلق. فلا يجرى غيرها على لسانه ، وكأنما كتبت كتابا فى جنانه .

فصل

ولما أصبح الاهل ، وتوسط الجبل يريد السهل وقد قضى الاجل وما نضا الوجل نوجى بما فى الكتاب المسطور ونودى كما نودى موسى من جانب الطور فعرض له فى طريقه ما شغله عن فريقه . فرفع رأسه متأملا فابصر الملك فى صورة رجل متمثلا . يشرفه بالنداء ويعرفه بالاجتباء . وانما عضد خبر الليلة بعيان اليوم. وأرى فى اليقظة مصداق ما اسمع فى النوم ليحق الله الحق بكلماته . وعلى ما ورد فى الاثر وسرد رواة السير فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن، وغير بدع ولا بعيد أنه يبدأ الوحى بعيد. كما ختمه بعيد «اليوم اكملت لكم دينكم». فبهت عليه السلام لما سمع نداءه وراءه. وثبت لا يتقدم أمامه ولا

---

(1) اقتباس من حديث شريف .

يرجع وراءه .

وقف الهوى بى حيث انت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

ثم جعل من الخوف والرجاء لايقلب وجهه فى السماء ، الا تعرض له فى تلك الصورة ، وعرض عليه ما اعطاه الله سبحانه من السورة . فيقف موقف التوكل ، ويمسك حتى عن التأمل.

تتوق اليك النفس ثم اردها حياء ومثلى بالحياء حقيق

اذود سواد الطرف عنك وما له الى احد الا اليك طريق

فصل

وفطنت خديجة لاحتباسه ، فامعنت فى التماسه « تزوجوا الودود الولود » ولفورها بل لفوزها بعثت فى طلبه رسلها ، وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسبلها « ان المحب اذا لم يستزر زارا » .

طال عليها الامد ، فطار اليها الكمد ، والمحب حقيقة من لا يفيق فيقة ، بالنفس النفيسة سماحه وجوده . وفى وجود المحبوب الا شرف وجوده .

كأن بلاد الله ما لم تكن بها - وان كان فيها الخلق طراً - بلاقع

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى اذا دجى لى الليل هزتنى اليك المضاجع
لقد نبتت فى القلب منك محبة كما نبتت فى الراحتين الاصابع

فصل

وبعدلاى ما وردعليها . وقد مضيفا اليها . فطفقت بحكم الاجلال تمسح أركانه، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه، فباح لها بالسر المغيب، وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب . فعلمت انه الصادق المصدوق ، وحكمت بأنه السابق لا المسبوق . « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » . وما زالت حتى أزالت ما به من الغمة . وقالت انى لارجو ان تكون نبي هذه الامة .

انى تفرست فيك الخير اعرفه والله يعلم ان ما خاننى البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد ازرى به القدر

لانرهب فسوف تبهر ، وسيبدو امر الله تعالى ويظهر . انت الذى سجعت به الكهان ، ونزلت له من صوامعها الرهبان . وسارت بخبر كرامته الركبان . أنت الذى ما حملت أخف منه

حامل ، ودرت ببركته الشاة فاذا هى حافل .

وانت لما ولدت اشرقت الـــــأرض وضاءت بنورك الافـق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النـــــور وسبـل الرشـاد نخـتـرق

فصل

وما لبثت أن غلقت أبوابها ، وجمعت عليهـا أثوابهـا .

وانطلقت الى ورقة بن نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك المجمل . وكان يرجع الى عقل حصيف ، ويبحث عمن يبعث بالدين الحنيف . فاستبشر به ناموسا ، وأخبر انه الذى كان يأتى موسى . فازدادت ايمانا ، وأقامت على ذلك زمانا . ثم رأت ان خبـر الواحد قد يلحقه التفنيد ، ودرت ان المجتهد لا يجوز له التقليد ، «طلب العلم فريضة على كل مسلم» . فرجعت ادراجها فى ارتياد الاقناع ، وألقى فى روعها القاء الخمار والقناع . فهناك وضح لها البرهان . وصح لها ان الآتى ملك لا شيطان .

تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل من جو السماء ويرقـم

نشاوره فيما نريد وقصدنـا اذا ما اشتهى انا نطيع ونسمع

فصل

سبقت لها من الله تعالى الحسنى ، فصدقت حسنا ، و قالت حسنا « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ما فتر الوحى بعدها ، ولا مطل الحق الحي وعدها « وعد الله لا يخلف الله وعده » دانت لحب ذى الاسلام ، فحياها الملك بالسلام ، من الملك السلام « من كان لله كان الله له » أغنت غناء الابطال ، فغناها لسان الحال :

هل تذكرين ـ فدتك النفس ـ مجلسنا يوم التقينا فلم انطق من الحصر

لا أرفع الطرف حولى من مراقبة بقي على وبعض الحزم فى الحذر

يسرت لاحتمال الاذى والنصب ، فبشرت ببيت فى الجنة من قصب ، هل آمنت اذ آمنت من الرعب ، حتى غنيت عن الشبع بما فى الشعب.

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

واها لها احتملت عض الحصار ، وما أطاقت فقد النبي المختار .

يطول اليوم لا ألقاه فيه وشهر نلتقى فيه قصير

والحبيب سمع المحب وبصره ، وله طول محياه وقصره .

أنت كل الناس عندى فاذا غبت عن عينى لم ألق أحد

مكنت للرياسة ، مواسية وآسية ، فثلثت فى بحبوحة الجنة مريم وآسية ، ثم ربعت البتول [1] فبرعت ، نطقت بذلك الآثار وصدعت ، خير نساء العالمين أربع .

فصل

الى البتول سير بالشرف التالد، وسبق الفخر بالام الكريمة والوالد . حلت فى الجيل الجليل ، وتحلت بالمجد الاثيل ، ثم تولت الى الظل الظليل .

وليس يصح فى الافهام شىء اذا احتاج النهار الى دليل

وأبيها [2] ان أم أبيها لاتجد لها شبيها . نثرة النبى ، وطلبة الوصى . وذات الشرف المستولي على الامة القصى . كل والد الرسول درج فى حياته ، وحملت هى ما حملت من آياته . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. لافرع للشجرة المباركة من سواها. فهل جدوى اوفر من جدواها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . حفت بالتطهير والتكريم ، وزفت الى الكفء الكريم ، فوردا

---

(1) يعنى السيدة فاطمة فانها تلقب بالبتول

(2) هذا قسم . ويلاحظ فى الجملة الجناس التام.

صفو المعارفة والمنة ، وولدا سيدي شباب أهل الجنة . عوضت من الامتعة الفاخرة ، بسيدي الدنيا والاخرة . ما أثقل نحوهما ظهرا ، ولا بذل غير درعه مهرا . كان صفر اليدين من البيضاء والصفراء ، وبحالة لا حيلة معها في اهداء الحلة السيراء . فصاهره الشارع وخالله . وقال في بعض صعلوك لا مال له . نرفع درجات من نشاء.

فصل

أتنتهب الايام أفلاذ احمد وأفلاذ من عاداهم تتودد

ويضحى[1] ويظما أحمد وبناته وبنت زياد وردها لا يصرد

أفي دينه في أمنه في بلاده تضيق عليهم فسحة تتورد

وما الدين الا دين جدهم الذي به أصدروا في العالمين وأوردوا

ويقول المقري بعد ذلك: «انتهى ما سنح لي ذكره من درر السمط وهو كتاب غاية في بابه . ولم أورد منه غير ما ذكرته لان في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه ولطفه.

واذاً فقد نقل لنا المقري الجزء الاول من الكتاب الى ان وصل الى ذكر أسباط الرسول فوقف عند هذا الحد ، مع ان

---

(1) الضحاء التعرض للشمس .

الكتاب فى موضوع اخبار السبط . ومن المعقول ان يكون ما سبق تمهيداً لصميم الكتاب وشهادة المقرى عليه « بانه غاية فى بابه » شهادة قيمة تزيدنا أسفاً على فقدانه . (1)

وبعد فابن الابار مؤرخ اديب مسلم تعلق قلبه بحب الرسول وذريته ، وقد كان هذا الكتاب منه انتاج العقل والقلب معا ، انتاج الرجل العالم المثقف الذى وعى التاريخ وعرف حقائقه ، فلاصعوبة عليه فى ذكرها ، والذى ملك اعنة البيان فلا صعوبة عليه فى التعبير باللغة التى يريدها ، والاسلوب الذى يريده ، والذى تملكته عاطفة حب الرسول والولاء آل الرسول فالهبت خياله ، واطلقت قلمه بالتعبير . ولا احسب هذا الكتاب الذى جمع بين قوة العقل ، وقوة الحب ، وقوة الخيال الا كتابا معبرا تعبيرا صادقا عن قدرة مؤلفه البلاغية ، وممثلا له تمثيلا صحيحا صادقا.

ذلك لان ابن الابار مؤلف التكملة ، والمعجم ، والحلة السيراء وتحفة القادم الخ جامع لاخبار ونكت وطرائف قرأها اوسمعها ،

---

(1) بعد كتابة ما تقدم اخبرنى صديقى السيد عبد الله كنون انه توجد منه نسخة بالمكتبة الاهلية بمدريد وان عنده منه نسخة غير تامة.

ومقلد او ناقل لاسلوب من سبقوه ، وابن الابار فى الرسائل الديوانية يراعى من اللياقة فى التعبير ما يسر له المرسل اليه حتى تؤدى الرسالة غرضها ، وتحقق قصدها . وقد يخرج عن طبعه فيتملق المرسل اليه او يلاطفه ، ويتودد اليه ، جريا على حسن السياسة، واسلوب الكتاب الرسميين . اما فى هذا الكتاب فهو يكتب على سجيته ، ويسترسل على نظرته ، لاخوفا من نار ولا طمعا فى جنة . وهو لهذا الكتاب الذى يمكن الحكم به على ابن الابار الكاتب المؤلف .

اما وقد حرمنا بقية الكتاب فلا بأس ان ندرس اسلوب التاليف عند ابن الابار فى الجزء الذى اوردناه .

يحرص ابن الابار على اسلوب السجع فى هذا الكتاب حرصه عليه فى معظم ما ألف من كتب عند ما يريد ان يعطى صناعة الانشاء حقها . وهو فى هذا شبيه بكل كُتاب عصره .

وهو يقتبس ما امكنه من القرآن والحديث والامثلة السائرة والشعر ، شأنه فى هذا ايضا شأن غيره من كتاب عصره . فتراه يدخل فى اسلوبه مثلا العبارات « ومنعوا اليتيم ان يقهر »

« ومن يكتمها فانه آثم قلبه » « من كان لله ، كان الله له » .

تريدين ادراك المعالى رخيصة . . . . الخ .

وهو يلمح الى حوادث تاريخية تلميحا بارعا منسجماً مع بقية العبارات والافكار ، كما يفعل كتاب المعلقات ، وكما يفعل الكاتب المؤرخ الذى يذكر الحوادث جيدا ، ويجد فى حوادث يومه مذكرا بحوادث غده . فتراه يقول مثلا « نوجى بما فى الكتاب المسطور ، ونودى كما نودى موسى من جانب الطور » .

وهو يستعمل كثيرا من الجناس فى عبارته ، ويلجأ الى الكلمات المتشابهة الحروف والنطق فيصوغها متجاورة فى العبارة الواحدة او الجملة مثل « ما قُدَّ من أديم آدم اطيب من ابيهم طينة » « فان تميزوا فبشريعتهم البيضاء او تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء » « وغير بدع ولا بعيد ان يبدأ الوحى بعيد »

هكذا نجد اسلوب ابن الابار فى هذا الكتاب مشبعاً بالمحسنات اللفظية ، والصناعة المقصودة فى اختيار الكلمات واقتباس العبارات والجمل ، وهو مع كل هذا اسلوب مقبول سهل ، اسلوب اسهل واخف من اسلوبه فى بعض رسائله .